



The foundation of the science of theology in the era of revelation (Applied study)

Masoud Muhammad Ali 

Department of Philosophy / College of Arts /
University of Salahaddin/ Erbil-Iraq

Article Information

Article History:

Received Nov 11/2024

Revised Feb 15/2025

Accepted Feb 23/2025

Available Online September , 2025

Keywords:

Controversy..

Definition.

Obligation of the opponent

Correspondence:

Masoud Muhammad Ali

masood.ali@su.edu.krd

Abstract

This research is a realistic scientific debate that demonstrated the confrontation of groups of people with proof, each according to his mentality. Because returning with proof is more correct than returning with the sword. Because fear may lead its owner to be hypocritical, while the person with proof is not like that.

He confirms that the roots of the science of theology, whose goal is to defend the truths of faith in a rational and convincing way, were present in the Qur'an and desirable science, as appeared from the debate of Abraham - peace be upon him.

It gives us insight into knowing God without excessive denial or excessive comparison, but rather with a knowledge befitting His majesty that there is nothing like Him.

He uses methods of persuasion according to the classes of people, perhaps by stimulating the innate sense without using scientific terminology in reasoning. It may be by using the balance of reason and logic in an easy form, or it may be by using reason in a precise form, which is the path of philosophy or the path of the mysterious and precise rationalist.

DOI© 10.33899/radab.2024.155136.2269 Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.

This is an open access article under the CC BY 4.0 license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).

تأصيل علم الكلام في عصر النزول (دراسة تطبيقية)

مسعود محمد علي *

المستخلص :

هذا البحث مناظرة علمية واقعية أثبتت مواجهة فئات الناس بالبرهان كُلاً حسب عقلية؛ لأنَّ الراجع بالبرهان أصحُّ من الراجع بالسيف؛ إذ الخوف قد يَحْمِلُ صاحبه على النفاق، وصاحبُ البرهان ليس كذلك.

ويؤكد أنَّ جذور علم الكلام - الذي غايته الدفاع عن الحقائق الإيمانية بطريق عقلانيٍّ مقنع - كان موجوداً في القرآن وعلماً مرغوباً كما ظهر من مجادلة إبراهيم - عليه السلام -.

ويُبيِّن لنا إلى معرفة الله بلا إفراطٍ الإنكار ولا تفريطٍ التشبيه، بل معرفةً تليق بجلاله بأنَّه ليس كمثله شيءٌ.

* قسم الفلسفة /كلية الاداب /جامعة صلاح الدين / أربيل – العراق

ويستعمل مسالك للإقناع حسب طبقات الناس قد يكون بتنبية الإحساس الفطري بلا استعمال الاصطلاحات العلمية في الاستدلال. وقد يكون باستعمال ميزان العقل والمنطق في صورة سهلة، وقد يكون باستعمال العقل في صورة دقيقة وهو مسلك الفلسفة أو مسلك العقلي الغامض والدقيق.

الكلمات المفتاحية: الجدل. التعريف. إلزام الخصم. الإنكار.

المقدمة:

لكل أمة في العالم دين - مع قطع النظر عن صحته وفساده - لديها أعز من كل شيء، ولكن بالنسبة للمسلمين كان الإسلام أكثر أهمية، ونتيجة لهذه الفكرة بذل المسلمون جهوداً مضنية في كل عصر للمحافظة على دينهم من جميع المخاطر المحدقة به.

إن علم الكلام له جوانب من حيث عرض الحقائق الإيمانية والاستدلال على حقيقتها ونقاش المخالف، لكن النقاش هو السمة البارزة فيه، لذا يُعبر عنه المتكلمون بالاستدلال العقلي على القضايا الإيمانية ردًا للخصوم لكن بموضوعية بحيث يُقَدِّم جانب الاتفاق على جانب الاختلاف؛ لإحداث أرضية مشتركة للنيل إلى كشف الباطل وإقناع المقابل. ومعلوم أن الراجع بالبرهان أصح من الراجع بالسيف؛ إذ الخوف قد يحمل صاحبه على النفاق، وصاحب البرهان ليس كذلك.

ويُعبّر عن هذه الحقيقة بتعابير كثيرة، منها: (مجابهة فئات الناس كلاً حسب عقليته)، أو (أخذ دليل الخصم بنظر الاعتبار) أو (إلزام الخصم بلوازم مسلماته) أو (إقامة الحجّة على مذهب الخصم ومنهجه) أو (من فيك أدينك) أو (بسيك أقتلك) أو (ردّ الفكرة بالفكرة نفسها)، وغيرها من العبارات.

هذا. وذكر فكرة الخصم وجوانبها، ليس مخالفة للدين، وإنما الممنوع ذكر الشبهة بدون الجواب؛ إذ في القرآن العظيم توجد حكاية المخالفين وعنادهم ودلائلهم الباطلة عليها، وردّهم معها، مثل قولهم: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُخِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) يس: 78 - 79، فذكر إنكار البعث وأمثاله من حيث العلم بها لتردّ حسن، ومن حيث ذاتها قبيح، وقد يتشبه أهل الضلال بذكر الشبهات غافلين عن دليل الرد إما لجهل أو عناد.

فمناقشة أصحاب الشبهات طبقاً لمقتضى شئهم التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني.

وسمي هذا العلم بأسامي وكثرة الأسماء لشيء تدل على كثرة المعنى وكونه متعدّد الجهات، ونحن نركّز على جانب النقاش إلا قليلاً.

إشكالية البحث:

علم الكلام كباقي العلوم - بل بالامتياز - له إشكالية كثيرة:

منها: هل الكلام علماً مرغوباً مطلقاً أو مذموماً مطلقاً أو هناك كلامان مقبول ومردود؟ ما غاية علم الكلام هل هي دفاع أو تقرير، أو كلاهما؟ هل استساغ علم الكلام العار المتّمسك في مجابهة القلم بالسيف أو واجه فئات الناس كلاً حسب عقليته؟ ما منهج علم الكلام في مواجهة التحديات؟ وفي هذا البحث نرى الجواب لتلك الأسئلة وحلّها.

أهمية البحث:

أهميته تظهر من خلال بيان أن أساس علم الكلام هو الإيمان بالمصدر الإلهي للوحي، وهذا فيصّل التفرقة بين علم الكلام والفلسفة. وكذا التعرف على منهج الوسط في معرفة الله بلا إفراط الإنكار ولا تفريط التشبيه، بل معرفة تليق بجلاله المتمثل في: ليس كمثله شيء.

وكذا التعرف على المنهج الإسلامي في مواجهة التحديات المتمثل في تنزيله إلى رأي المخالف؛ لإحداث أرضية مشتركة للحوار. هذه الأسباب وغيرها من أسباب اختياري لهذا البحث.

هدف البحث:

إبراز أصالة هذا العلم من خلال القرآن الكريم ودحض الوهم المشهور من أن علم الكلام علم مختلق لا صلة له بالقرآن وعقيدته، وتجربة إمام الأنبياء إبراهيم وسيدنا موسى - عليهما السلام - خير دليل على ذلك.

دفع التضارب في التعاريف الكلامية بتوجيه التعاريف حسب المراحل التاريخية إلى عرضنا الحاضر وتخصيص كل تعريف لمرحلة دفعاً للتضارب وتبصرة لخصائص كل مرحلة به.

ومنهجي في البحث منهجٌ وصفيٌ بذلت الجهد في - كل المراحل - بإبراز المبدأ العام والأصلي في علم الكلام مما يعني مواجهة كل فكرة حسب عقلية حاملها، وأشرت إلى استنتاجاته العلمية، وبالتالي ليس البحث خالياً من دراسة تحليلية أيضاً.

موضوع البحث:

اقتضى منهج البحث تسميته على مقدمة ومبحثين؛ لذا عقدتُ خُطتي في الرسالة على النحو الآتي:
ففي المقدمة تطرقتُ إلى إشكالية البحث وأهميته وهدفه ومنهجي في البحث ومباحثه.

المبحث الأول: تحدثتُ فيه عن تعريف علم الكلام وفائدته حسب مراحل التاريخ مع ما لها من امتياز لكل مرحلة عن غيرها.

المبحث الثاني: تحدثتُ فيه عن أمثلة تطبيقية عن الإلهيات والنبوات والسمعيات في المرحلة الأولى التي مر بها هذا العلم وهي عصر النبوة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ويؤول كل فضل إليه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب.

المبحث الأول: علم الكلام نظرياً

هناك كثير من التعاريف قديماً وجديداً، يمكن أن نسميها حسب المراحل التاريخية إلى أربعة مراحل؛ وهذا التقسيم يُبين لنا الاختلاف في تعاريف هذا العلم، ويُبصرنا في كل مرحلة إلى مرماء وفائدته، كما يتجلى في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: تعريفه حسب مراحل التاريخ

الفرع الأول: تعريفه في عصر الصحابة:

الكلام: (هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية. أو معرفة العقائد عن أدلتها)⁽¹⁾. هذا هو كلام القدماء من السلف الصالح. فعلم الكلام في هذه المرحلة عبارة عن بيان العقائد بالدليل من الكتاب والسنة دون الخوض في الجدل الداخلي إلا نادراً؛ لوجود النبي في حل المشكلات، ولقلة الجدل بسبب رسوخ إيمان مؤمني هذه المرحلة. ووضوعه في هذه المرحلة ليس بحثاً عن الوجود بل كان بحثاً عن المبدأ والمعاد، أو ما نسميه في ثقافة العقيدة بأصول الدين.

كان الخلاف والجدال في هذه المرحلة إنما هو مع خارج البيئة الإسلامية من المشركين وأهل الكتاب.

الفرع الثاني تعريفه في وقت الفرق الإسلامية

لم تستمر المرحلة السابقة بل حدثت الفتن بين المسلمين في زمن خلافة علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه -، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء، ففي هذه المرحلة معظم خلافيات القدماء مع الفرق الإسلامية كالخوارج⁽²⁾ خصوصاً المعتزلة⁽³⁾؛ فانقسم علم الكلام إلى نوعين: علم كلام أهل السنة، وعلم كلام الفرق الإسلامية:

فعرّف أهل السنة علم الكلام - في هذه المرحلة - من حيث الفائدة والغاية، وهي: (حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة)⁽⁴⁾.

فهو عبارة عن نوع من الاستدلال الذي كان يقصد منها نُصرة الآراء المخالفة لمنهج السلف⁽⁵⁾: أمّا علم كلام المعتزلة

ففي هذه المرحلة اختص الاسم - أي: علم الكلام أو أهل الكلام - بأهل البدعة، كما قال متكلم: (أمّا - تشديد السلف على الكلام فهو محمول على أهل البدعة)⁽⁶⁾.

(1) التفنّازي: سعد الدين مسعود بن عمر. (1989م). المقاصد وشرحه. ط1. عالم الكتب. بيروت: 163/1

(2) الخوارج: فرقة منشقة عن سيدنا علي - رضي الله عنه - على أساس فهم مغلوّط في مسألة التحكيم، وكانوا متشدين ومقيدين بحرفية النص، ولهم آراء شاذة منها: تكفير صاحب الكبيرة. الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق. (1980). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. ط3. دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن. (ألمانيا): 207/1. الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. (1992م). الملل والنحل. ط2. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان: 107/1.

(3) هم أتباع واصل بن عطاء (ت131هـ) لكن اختلفوا في سبب تسميتهم بالمعتزلة على أقوال. وهؤلاء اجتمعوا على أصول خمسة، كما صرح بها أبو الحسين الخياط المعتزلي بقوله: (وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي).

الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعتزلي. (1993م). الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. ط2. مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة. بيروت. لبنان: 126-127. وأيضاً الملل والنحل: 42/1.

(2) الغزالي: محمد بن محمد بن محمد. (1967م). المنقذ من الضلال. ط7. دار الأنذلس. بيروت. لبنان: 32.

(3) الملل والنحل: 44/1. البالكلي: محمد باقر بن حسين الأردلاني. (1993م). الألطاف الإلهية شرح الدرر الجلالية. ط1. ميّط باسن. استانبول: 75/1.

(4) الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن. (1998)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير. ط3. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان: 329/2.

ويؤيد هذا ما ذكره متكلم آخر حيث قال: (ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كُتِبَ الفلاسفة حين فُتِرَتْ أيام المامون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنّاً من فنون العلم وسمّتها باسم الكلام) (1).

فإن علم الكلام المعتزلة عبارة عن الاستدلال العقلي المتأثر بمنهج الفلسفة اليونانية لنصرة آراء مخالفة مع منهج السلف؛ فهذه نقطة جوهرية للفرق بين علم الكلام على منهج أهل السنة وبين علم الكلام على منهج المعتزلة.

هدفت علم الكلام عند أهل السنة في هذه المرحلة: (حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة) (2). وكما يقول متكلم آخر وعالم اجتماع أيضاً: (وهو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة) (3).

وعلى ما سبق أيضاً تجلّى جانب الذمّ وجانب المدح، والذين مدحوا علم الكلام ما مدحوه مطلقاً بل للذين عندهم الاستعداد للتفهّم بالمسائل الفلسفية وعند الحاجة.

والذين ذمّوه ما ذمّوه مطلقاً؛ لأنهم هم من علماء الكلام وأهل الاستدلال في العقائد - كما هو معلوم لدى أهله -، وإنما ذمّوا المنهج العقلي للمعتزلة الذي تأثر بالفلسفة اليونانية وصيروا العقل حاكماً على الوحي بحيث يسيّر الوحي وراءه. وأفراطوا في الحجّة العقلية حتّى أختصّوا بهذا الاسم - أهل الكلام - ورّجوا أفكارهم المخالفة به (4).

الفرع الثالث: مرحلة ترجمة الفلسفة اليونانية:

هذه المرحلة لها ميزتها هي أنّه (لما نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية - في عصر المامون - وخاض فيها الإسلاميون، وحاولوا الرّدّ فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيراً من الفلسفة ليتحقّقوا مقاصدها، فيتمكّنوا من إبطالها وهلمّ جرّاً، وعلى هذا الأساس أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا في الرياضيات، حتّى كاد لا يتميّز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيّات، وهذا هو علم كلام المتأخّرين) (5).

لكن مع هذا الاختلاط لم يفقد خاصيته من تمسّكه بالوحي وإلزام الخصم بلوازم مسلماته على ضوئه.

ففي هذه المرحلة وسّع موضوع علم الكلام من البحث عن العقائد مباشرة إلى البحث عن المعلوم المؤدية إلى إثبات العقائد، وعرفوا علم الكلام بأنّه علم يبحث عن (المعلوم من حيث يتعلّق به إثبات العقائد الدينية تعلّقاً قريباً أو بعيداً) (6).

- تعلّقاً قريباً، أي: يتعلّق بإثبات العقائد الدينية مباشرة: كقَدَم الله، ووحدانيّته، وإثبات حدوث العالم.

- تعلّقاً بعيداً، أي: يبحث عن مواضع ليست من مواضع العقيدة مباشرة، بل تكون وسيلة لإثبات العقائد الدينية من بحوث طبيعّية، ورياضيّة:

- البحوث الطبيعيّة مثل: تركّب العالم من الجوهر والعرض (7)، والجوهر الفرد (8)، ووجود العالم وعدمه.

وعلى هذا الأساس أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا في الرياضيات، حتّى كاد لا يتميّز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيّات (9).

(5) الملل والنحل: 42/1.

(1) المنقذ من الضلال: 32.

(2) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد الحضرمي. (1984م). مقدمة ابن خلدون. ط5. دار القلم. لبنان. بيروت: 507.

(3) أبو حنيفة: النعمان. (2004م). الفقه الأكبر. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان: 621. الشعراني: عبدالوهاب. (2008م). القواعد الكشفية الموضحة للصفات الإلهية. ط1. مكتبة أم القرى: 42.

(1) الخيالي: أحمد بن موسى شمس الدين، ورمضان بن محمد الحنفي الأفندي، ومصالح الدين بن محمد القسطلاني (2012م). المجموعة السنية على شرح العقائد النسفية. ط1. دار نور الصباح. اسطنبول. تركيا: 81.

(2) الإيجي: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد. (1997م). المواقف. ط1. دار الجيل. بيروت. لبنان: 35/1.

(3) الجوهر: ممكن حادث قائم بنفسه.

ومعنى القيام بالتّمسّس أن لا يكون صفة لغيره، بمعنى أنّه مستغن عن المحلّ فقط، ومعنى المحلّ في علم الكلام ليس معناه اللغوي بل بمعنى لم يكن وجوده مربوطاً بوجود شيء آخر كالعرض فهو ممكن حادث قائم بغيره. أي: لا يقبل الوجود بدون قيامه بالجوهر.

البالكلي: محمد باقر بن حسين الأردلاني. (1993م). الألفاظ الإلهية شرح الدرر الجلالية. ط1. ميّطا ياسن. استانبول: 1/2 - 2.

(3) الجوهر الفرد يُسمّى جزءاً، وجزءاً لا يتجزأ: أصل المادة ما لا يقبل القسمة لا فعلاً ولا عقلاً ولا وهماً. المصدر نفسه: 5/2. وأيضاً المواقف وشرحها: 277/6.

(1) المجموعة السنية على شرح العقائد النسفية: 80 - 81.

الفرع الرابع: مرحلة العصر الحاضر:

إنَّ التعريف السابق يشمل مرحلة ترجمة الفلسفة والمرحلة الراهنة؛ لأنَّ البحث عن المعلوم لا يختصُّ بمدة من الزمن؛ لذا يصحُّ أن يُعرَّف علم الكلام في العصر الحاضر بأنَّه: (علمٌ يبحث عن المعلوم من حيث يتعلَّق به إثبات العقائد الدينيَّة تعلُّقاً قريباً أو بعيداً) (1). وذلك لأنَّ مسائل هذا العلم إما عقائد دينيَّة كإثبات القِدَم والوحدة للصانع، وإما قضايا تتوقف عليها تلك العقائد كتركُّب الأجسام من الجواهر الفردة الدالَّة على ضرورة المُحدث للحادث. والشامل لموضوعات هذه المسائل هو المعلوم المتناول للموجود، والمعدوم (2). ومما يتعلَّق به تعلُّقاً بعيداً:

– النظريَّات التي تَبَحُّث في أصل الإنسان، كنظريَّة التطوُّر أهيَّ صحيحة أم لا ؟.

– النظريَّات الباحثة في دلالة النصوص وتأريخيَّتها.

– النظريَّات الاقتصادية والسياسيَّة الباحثة في أصول الأحكام الضابطة لأفعال الإنسان وتصرفاته.

المطلب الثاني: فائدة علم الكلام:

يمكن تقسيم فائدته إلى عامَّة وإلى خاصَّة:

أما العامَّة: ففائدته بالنظر إلى الشخص تقوية قوته النظرية.

وبالنظر إلى تكميل الغير وهو إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة لهم إلى عقائد الدين، والزام المعاندين بإقامة الحجَّة عليهم.

وبالنسبة إلى أصول الإسلام وهو حفظ قواعد الدين وهي عقائده عن أن تزلزلها شُبُه المبتلين.

بالنظر إلى فروعه وهو أن تُبنى عليه العلوم الشرعية، أي: يبنى عليه ما عداه منها؛ فإنَّه أساسها (3).

وأما الخاصة بالنسبة لمراحله التي مرَّ بها:

ففائدته بالنسبة لعصر النزول جوابُ شُبُهات أهل الأوثان وأهل الكتاب (4).

وفائدته في مرحلة الفرق الإسلاميَّة: (حفظ عقيدة أهل السُنَّة وحراسَتها من تشويش أهل البدعة) (5).

وفائدته في عصر الترجمة حفظ عقيدة الإسلام من تشكيك المشكِّكين، كما أشار متكلمٌ إلى هذا فيقول: (اعلم يا أخي أنَّ علماء الإسلام ما صَنَعُوا كُتُبَ العقائد لِئَنبِتُوا في أنفسهم العلمَ بالله تعالى، وإنَّما وَضَعُوا إرداعاً للخصوم الذين جَحَدُوا الإله، أو الصفات، أو بعضها، أو الرسالة، أو رسالة - سيِّدنا - محمَّدٍ ﷺ بخصوصيَّها، أو حدوثِ العالم، أو الإعادة في هذه الأجسام بعد الموت، أو أنكَروا النشْر أو الحشر، أو نحو ذلك ممَّا لا يَصْدُرُ إلَّا من المكذِّبين، فطلب علماء الإسلام إقامة الأدلَّة القطعيَّة عليهم؛ ليرجعوا إلى اعتقاد وجوب الإيمان بما جاءَتْ به الرُّسُلُ عن ربِّهم لا غيرُ.

وإنَّما لم يُبادروا إلى قتلهم بالسيف رحمةً بهم، ورجاءً لرجوعهم إلى طريق الحقِّ - بالبرهان -، ومعلومٌ أنَّ الراجع بالبرهان أصحُّ من الراجع بالسيف؛ إذ الخوف قد يَحْمِلُ صاحبه على النفاق، وصاحبُ البرهان ليس كذلك، فذلَّكَ وَضَعُوا علمَ الجوهر والعَرَض وبسطوا في ذلك (6).

وقال آخرُ: (والمُتَكَلِّمون إنَّما دعاهم إلى ذلك كلامُ أهل الإلحاد في معارضاَتِ العقائد بالبدع النظرية) (7).

(1) المواقف وشرحها: 35/1.

(2) التهانوي: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد. (1996م). موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. ط1. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت. لبنان: 30/1.

(1) المواقف وشرحها: 52/1.

(2) القواعد الكشفيَّة الموضحة للصفات الإلهيَّة: 42-43.

(3) المنقذ من الضلال: 32.

(4) القواعد الكشفيَّة الموضحة للصفات الإلهيَّة: 42.

(2) المقدمة: 302.

وفائدته في المرحلة الراهنة ردُّ الشُّبُهَات السابقة والراهنة كالإلحاد والعولمة وهذه المرحلة تُثَقِّل وظيفة علماء الكلام لتوسيع دائرة الشُّبُهَات أكثر مما سبقها.

من خلال المواقف السابقة تبيَّن غايَةُ عِلْمِ الكلام: وهي حفظُ العقيدة عن شُبُهَةِ المبتدعة والمنكرين للدين ضدَّ العقائد الإسلامية وتبيين وكشف الزيف في وجه القضايا الوهميَّة المجعولة عقليَّة.

ومما سبق أيضاً نصل إلى جواب ما قيل: فما عذر علماء الكلام في الإفراط بالتعلُّق بأدلة العقول دون الشرع المنقول في معرفة الرَّبِّ؟. الجواب: إنَّما أرادوا وجهين:

أحدهما: أنَّ الأدلة العقليَّة وقعت في كتاب الله مختصرةً بالفصاحة،... فكمل العلماء ذلك الاختصار، وعبروا عن تلك الإشارة بتنمَّة البيان.

الثاني: أنَّهم أرادوا أن يُبصِّروا الملحدة، ويُعرِّفوا المبتدعة أنَّ مجردَ العقول التي يدَّعونها لأنفسهم، ويعتقدون أنَّها معيارهم، لا حظَّ لهم فيها،.... فتكلَّموا بمجرَّد الأدلة العقليَّة، ليَرى الملحد أنَّه محجوجٌ بكلِّ طريق⁽¹⁾.

لو قنَّسنا عِلْمَ الكلام لم نجد فيه إلَّا تقريرَ هذه الدلائل - من الإلهيات والنبوات والسمعيَّات - والدَّبَّ عنها ودفع المطاعن والشُّبُهَات الفاحدة فيها.

أفترى أنَّ عِلْمَ الكلام يُدْمُ لاشتماله على هذه الأدلة التي ذكرها الله أو لاشتماله على دفع المطاعن والقوادح عن هذه الأدلة ما أرى أنَّ عاقلاً مسلماً يقول ذلك ويرضى به؟!!!⁽²⁾.

المبحث الثاني: تطبيقات كلاميَّة في عصر النزول

يمكن تسمية عِلْمِ الكلام في هذه المرحلة بمرحلة البيان والأخذ بدون الجدال، وإنَّما الجدُّ العقليُّ كان بين المسلمين والمشرِّكين وأهل الكتاب، كما يتجلَّى في المطالب الآتية.

المطلب الأوَّل: أصول العقائد بلا جدال:

توضيحاً لما أنَّ هذه المرحلة لا جدال ولا تفصيل فيها لدى الجيل الأوَّل - الصحابة - إلَّا نادراً، نشير إلى مسائلٍ تحمل في طياتها كثيراً من الخلافات لمن بعدهم، إليكم بعض الأمثلة من التسليم في باب العقائد بلا جدال:

قد أثبت القرآن أنَّ الله سبحانه منزَّه عن أن يشبه شيئاً من المحدثات، أو يشبهه هو شيئاً منها بقوله: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] الشورى: 11. لم يسألوا عن الصفات: هل هي زائدة أو عيناً أو غيرها من المباحث التي شغلت بال من أتوا بعدهم؟.

وأثبت رؤيته في الآخرة للمؤمنين بقوله تعالى: [وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ نَاصِرَةً. إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ] القيامة: 22-23. وأثبت بمفهوم مخالف في الكفار: [كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ] المطففين: 15. أثبت الرؤية للمؤمن في الجنة ونفاها عن الكافر، ولم يسأل الصحابة عن كيفية الرؤية.

وأثبت نفى الإحاطة به بقوله: [لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ] الأنعام: 103، وبقوله: [وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً] النساء: 126.

وأثبت كونه قادراً بقوله تعالى: [وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] البقرة: 284.

وأثبت كونه مريداً بقوله تعالى: [فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ] هود: 107.

وأثبت كونه عالماً بقوله تعالى: [وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً] الطلاق: 12.

(3) الإشبيلي: محمد بن عبدالله بن العربي. (1990م). قانون التأويل، ط2. دار الغرب الإسلامي. تونس: 176-178.

(2) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: 325/2.

- وأثبت كونه سميعاً: [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا] المجادلة:1.
- وأثبت كونه تعالى بصيراً بقوله: [وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] البقرة:265.
- وأثبت كونه متكليماً بقوله تعالى: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا] النساء:164.
- وأثبت كونه متكليماً بقوله تعالى: [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] البقرة:255.
- وأثبت النبوات وإرسال الرسل بقوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ] يوسف:109.
- بخصوصها بقوله: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ] الفتح:29. وأثبت رسالة محمد
- وأثبت أنه آخر الأنبياء بقوله: [وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ] الأحزاب:40.
- بقوله: [فَأَتَوْا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ] البقرة:23. وأثبت المعجزة لنبينا
- وأثبت القدر من أن كل ما سواه خلقه بقوله تعالى: [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ] الصافات:96. وبقوله: [خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ] الأنعام:102.
- وأثبت السمعيات منها الجن بقوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] الذاريات:56.
- وأثبت دخولهم - أي: الجن - الجنة بقوله تعالى: [لَمْ يَطْمِئُنُّوا فِي الْقُبُورِ] الرحمن:74.
- وأثبت حشر الأجساد بقوله: [أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ] العاديات:9. وغير ذلك من أحوال الآخرة التي يجب الإيمان بها⁽¹⁾.
- فعلى ما سبق يمكن تسمية علم الكلام في هذه المرحلة بمرحلة البيان والأخذ بدون الجدل بين المسلمين، أي: (معرفة العقائد عن أدلتها من الكتاب والسنة)، وإنما الجدل العقلي كان بين المسلمين والمشركون وأهل الكتاب.
- وهناك أمثلة على ذلك الجدل العقلي بين المسلمين وغيرهم، سنأتي ببعضها في المطلب الآتي.
- المطلب الثاني: مثال عقلي على نفي الشرك:**
- هناك أمثلة كثيرة في باب الإلهيات والنبوات والسمعيات حصل الخلاف فيها بين المسلمين من جهة وبين النصارى واليهود بل الزنادقة من جهة أخرى، لكن لا مجال لسردها، وإنما نلقي الضوء على مسألة كان محور الصراع بين الأنبياء وأقوامهم، وهو تصوّر الله بما يليق أو بما لا يليق أو ما نسميه في ثقافة العقيدة بالشرك الذي أبسط تعريف له: هو إعطاء ما لله لغير الله أو إعطاء ما لغير الله لله.
- وهذا يتجلى في موقف إبراهيم - عليه السلام - مع قومه بدءاً من قوله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ] إلى قوله: [إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] الأنعام:75.
- هذه الواقعة تدلّ على تعريف الإله الحقّ بتنزيه الإله الحقّ عن التحيز والجهة والمادة، وبكونه خالقاً للكون وسلبه إيّاه لغيره وبالتالي نفي الإلهية لغيره تعالى من جهة أخرى.
- أو بعبارة أخرى: هذا الجدل العلمي كان نواة لتأصيل علم الكلام، أي: تأصيل إلزام الخصم بلوازم مسلماته، وهو من المحاكمات الفكرية في البحث عن الإله الحقّ ورفض الإله المادي.
- المجادلة في الآيات تتألف من مرحلتين:**

(1) القواعد الكشفية الموضحة للصفات الإلهية: 43-44.

قَدَّمَ في المجادلة **المرحلة الأولى:** أراد نفي ربوبية الكوكب بدليل محسوس على قاعدة: (إذا أردت أن تنفي شيئاً فافترض وجوده) (1). أي: نقطة الاتفاق على نقطة الاختلاف، إذ هم جعلوا الكواكب أرباباً وعبّوها، فقال على سبيل الفرض: [هَذَا رَبِّي] حسب زعمكم (2).

فبعد إحداث الأرضية المشتركة قد ذكر نقطة الاختلاف فقال في ردِّ تصوُّرهم: [لَا أَجِبُ الْأَقْلِينَ] (3).

لَمَّا حَكَمَ الْخَلِيلُ - عليه السلام - بأنَّ المتغيّر من حال إلى حال لا يصلح للإلهية، أي: أثبت أن دلائل الحوادث - كالأقول والانتقال - حاصلة فيها، فوجب كونها مخلوقة؛ وهذا إشارة إلى أن كل جسم لزم عليه التغيّر، والربُّ الحق لا يجوز عليه التغيّر والانتقال؛ لأنهما من شأن الحوادث، تبرزاً منهم تلميحاً وضمناً.

ففي هذه المرحلة قام بالتنزيه المطلق وتعيب الألهة الباطلة بالتحيز؛ ثم أثبت - عليه السلام - وحدانية الله ومعبوديته الحقّة عن طريق خالفتيه للكون لكن بطريق مسلمات الخصم، أي: عن طريق كشف نقص الأجرام السماوية على تدبير العالم.

المرحلة الثانية: فبعد إثبات عيب الألهة من حيث الحقيقة بأنّه مادة محتاجة إلى الأجزاء، وتحتاج الأجزاء بعضها إلى بعض، وهذا الاحتياج دائمياً ما دامت المادة، أثبت عيباً آخر من حيث الأفعال هو عدم خالفتيه الكواكب؛ وذلك من خلال سؤالهم له، فقالوا له: ما تعبد؟ قال في الآية: 79: [إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] به، فوصف الله تعالى بوصف يقتضي كماله وتوحيده وهو كونه خالقاً للأرض والسماوات (4).

فكانه ناقشهم علمياً من حيث الخالفية، فقال لهم: هذه الكواكب ليست خالقة السماوات والأرض؛ لأنها شيء بسيط بالنسبة للسماوات، وبالتالي السماوات والأرض بعد وجودهما محتاجتان إلى موجدٍهما كلّ لحظة؛ لأنّ الخالق قيوم مخلوقه على الدوام، أي: لا بدّ من العناية المستمرة منه له؛ فأنه إذا غابت عنهما وتركهما لا بدّ أن تفقد وجودهما الذي كان يمدّهما به، فيرجعان إلى الفناء والعدم، ومادام الكون لا

1. سيف الدين: أحمد سعيد. (2008م). العقيدة في القرآن الكريم بين التخلية والتخلية. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان: 99.
2. لا بدّ من توضيح الآية؛ ولو قال: [هَذَا رَبِّي] الأنعام: 76، على جهة الاعتقاد لكان كافراً في تلك الليلة إلى حين غروب الكوكب - حاشاه -، وكذلك يلزم الأمر في القمر والشمس، ومن اعتقد هذا فقد أعظم القرية على نبيّ الحجة وعلى أوّل من أصل أصول الدين بالاستدلال.
3. فيجب أن نعلم أولاً: أنّهم ما كفروا نبيّ قط ولا سجدوا لوثن قبل النبوة ولا بعدها، ولا نفوة أحد من الأمّة بذلك قط.
4. ابن خنيز: أبو الحسن علي بن أحمد السبتي. (1999م). تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم خاتمة الأغبياء. ط2. دار الفكر المعاصر. بيروت. لبنان: 97-98.
5. وإنّ قوله: [هَذَا رَبِّي] لا تخش في وفائه الإيماني، ولا بدّ أن لها وجهاً. ونعلم أنّ القوم كانوا يعبدون الكواكب، ويريد إبراهيم أن يلقّهم إلى فساد هذه العقيدة، فلو أنّ إبراهيم من أول الأمر قال لهم: يا كذابون، وظل يوجه لهم السبب لما اهتموا به ولا سمعوا له. لكن إبراهيم استخدم ما يسمى في الجدل بـ «مجاراة الخصم»؛ ليستميل أذانهم ويأخذ قلوبهم معه.
6. وثانياً: قال تعالى في مفتتح القصة: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُون مِنَ الْمُوقِنِينَ] الأنعام: 75، فلفظ [نُرِي] يدلّ على أنّ الله تعالى أراه أسرار السماوات والأرض قبل الحاجة، ثم قال بعده: [فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ] الأنعام: 76، والفاء في قوله: [فَلَمَّا] تقتضي التعقيب، فدلّ هذا على أنّ هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض، والملكوت صيغة المبالغة في الملك، مثلها مثل الرحمت وهي صيغة مبالغة من الرحمة، الملك هو ما تشاهده أمامك، والملكوت هو ما وراء هذا الملك، ومن كان بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يلبق بحاله أن يعبد الكواكب ويتخذها رباً.
7. الشعراوي: محمد متولي. (1997م). تفسير الشعراوي = الخواطر. ط1. مطابع أخبار اليوم، القاهرة. مصر: 3749/6.
8. وثالثاً: لهذا الأسلوب - أي: التكلّم بما اعتقده المخاطب - في القرآن نظائر وتؤكد على صحة توجيهنا، منها:
9. ما قاله تعالى: [وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِيْنِ شُرَكَائِي] فصلت: 47. وقال: [إِنِّي شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ] القصص: 62، فأضاف الشركاء إلى نفسه حكاية لقولهم، هل أقرّ الله سبحانه شركاء لنفسه؟!، حاشاه، وهو سبحانه يعلم أنه لا شريك له، ولكن قالها حسب زعم المشركين.
10. ومنها ما حكاه سبحانه عن سيّدنا موسى - عليه السلام - بعدما أحرق العجل فقال للسامري: [فَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ] طه: 97، أي: إلهك في زعمك.
11. الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن. (1984م)، عصمة الأنبياء. ط1. مطبعة الشهيد. قم. إيران: 62.
12. فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المكره المظنون: [لَا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ] النحل: 106؛ لِيُنْجِيَ حياته وهو فرد، أفلا يصحّ لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن يقول لهم: [هَذَا رَبِّي] بما تحتمل من أساليب حتى يُنْجِيَ أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام؟!.
13. إذن قوله - عليه السلام - [هَذَا رَبِّي] لم يكن على اعتقاد منه بل قال حسب اعتقاد الخصم، أي: [هَذَا رَبِّي] حسب زعمكم؛ لأنكم تزعمون بأن الكواكب آلهة للعالم وأنا جزء من العالم، فقال حسب اعتقادهم: [هَذَا رَبِّي]؛ لِيُزَيِّدَهُمْ بما هم به مقرون، وهذا إحداث لأرضية مشتركة للنيل إلى كشف باطلهم وتجليه الحق.
14. (3) لم يقل: لا أعبد الأقليّن، بل قال: لا أحب؛ لأنّ المحبة أساس العبادة وروحها، فكلّ عبادة إن لم تقم على أساس المحبة للمعبود فهي غير نافعة لصاحبها، بل كيف يتصوّر عبادة من يبعضه العابد؟! وهذا دليل صريح على عدم عبادته - عليه السلام - الكواكب في أوّل الأمر، وإلّا قال: هذا ربّي؛ لإلزامهم بدليلهم.

(1) تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي. وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. (دون تأريخ الطبع). تفسير الجلالين. ط1. دار الحديث. القاهرة. مصر: 160.

الإسفراني: طاهر بن محمد الإسفراني. (1983م). التفسير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكة. ط1. عالم الكتب، بيروت. لبنان: 160.

(2) سراج الدين: عبدالله محمدنجيب. (1991م). هدي القرآن إلى الحجة والبرهان ط1. مؤسسة الشام للطباعة. حلب. سورية: 151 - 153.

يَفْقَى بعد غياب الكوكب فاذن الكواكب ليست بخالق الكون وليست بقيومه، وإذا لم تكن خالقة له فلا تستحق العبادة؛ إذ العبادة أداء شكر الخالقية، فمن ليس بخالق ومدبر للكون لا يستحق العبادة⁽¹⁾.

فتقديم نقطة الاتفاق - كربوبية الكواكب فرضاً - على نقطة الاختلاف - عدم ربوبيتهم - قد أثبتتها القرآن من خلال هذه المجادلة، بل أيده بقوله: [وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ] الأنعام: 83. وهذا المنهج هو علم الكلام بعينه.

ويمكن ردّ مضامين الآيات (74 - 79) من سورة الأنعام إلى حجتين:

أولاهما: أثبت بها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - انتفاء الربوبية عن الأجرام السماوية وصورتها هي:

- هذا الكواكب متغيرة،

- والإله ليس بمتغير،

إذن هذه الكواكب ليست بالهية.

والأخرى: أثبت بها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - افتقار الأجرام السماوية المتغيرة إلى خالق غير متغير، وصورتها هي:

- هذه الكواكب متغيرة،

- كل متغير حادث، والحادث يحتاج إلى محدث،

- إذن هذه الكواكب تحتاج إلى محدث وخالق.

ومن الجدير بالانتباه هنا هو ما استدلل بعض علماء الكلام بهذه الآية: [لَا أُجِبُ الْإِفْلِينَ] على تأصيل علم الكلام، من: (أن الحركة والسكون والذهاب والمجيء والكون في المكان والاجتماع والافتراق والقرب والبعد من طريق المسافة والاتصال والانفصال والحجم والجزم والجنّة والصورة والحيز والمقدار والنواحي والأقطاب والجوانب والجهات كلها لا تجوز عليه سبحانه، لأن جميعها يوجب الحد والحجم والنهاية، وقد دللنا على استحالة ذلك على الباري - سبحانه وتعالى -، وأصل هذا في كتاب الله تعالى، وذلك أن إبراهيم - عليه السلام - لما رأى هذه العلامات على الكواكب والشمس والقمر قال: [لَا أُجِبُ الْإِفْلِينَ]، فبين أن ما جاز عليه تلك الصفات لا يكون خالقاً ورباً⁽²⁾.

وكما يقول آخر: (فلأننا نقول إنه لا عيب يقدح في الهيّة هذه الكواكب إلا أنها أجسام فتكون مؤلفة من الأجزاء والأبعاد، وأيضاً إنها منتهية ومحدودة وأيضاً إنها متغيرة ومتحركة ومنقلة من حال إلى حال فهذه الأشياء إن لم تكن غيوباً في الإلهية امتنع الطعن في إلهيتها، وإن كانت غيوباً في الإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها فوجب الجزم بأن إله العالم والسماء والأرض منزهة عن الجسميّة والأعضاء والأبعاد والحد والنهاية والمكان والجهة)⁽³⁾.

والدليل على تنزيه الله عن الجسميّة أيضاً هو أنه: (لما سأل فرعون موسى عليه السلام فقال: [وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ] الشعراء: 23، وطلب منه الماهية والجنس والجوهر، فلو كان تعالى جسماً مؤصوفاً بالأشكال والمقادير لكان الجواب عن هذا السؤال ليس إلا يذكر الصورة والشكل والقدر: فكان جواب موسى عليه السلام بقوله: [رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] مريم: 65، [رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ] الدخان: 8. [رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ] الشعراء: 28، خطأ وباطلاً، وهذا يقتضي تحطئة موسى عليه السلام فيما ذكر من الجواب، وتصويب فرعون في قوله: [إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ] الشعراء: 27، ولما كان كل ذلك باطلاً، علمنا أنه تعالى منزهة عن أن يكون جسماً، وأن يكون في مكان، ومنزهة عن أن يصح عليه المجيء والذهاب)⁽⁴⁾.

المبحث الثالث: من الجدل العقلي في النبوة:

هناك كثير من الشبهة حول النبوة كشبهة البشرية وكيفية التلقي والنسخ وغيرها تأتي ببعض منها في المطالب الآتية.

المطلب الأول: البشرية شبهة قديمة وجديدة:

(1) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: 160.

(2) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: 80/13 و 411/26.

(3) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: 357/5.

والقرآن، والقرآن مملوءٌ بالأمثلة من الردِّ عليهم. η هؤلاء هم الذين سلّموا أصل النبوّة وطعنوا في نبوّة محمّد إنّ اليهود حين: [قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء] [الأنعام: 91]، ردّهم ردّاً ملزماً: [قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهُدًى للناس] [الأنعام: 91].⁽¹⁾

كانّها تقول: لم تؤمنون بإنزال الوحي والكلام المباشر لموسى مع أنّه بشرٌ، ولا تؤمنوا بخطاب غير مباشرٍ من طريق جبريل لمحمد مع أنّ الأوّل أغرب؟!، لو كانت البشرية مانعة من ثبوت الوحي يلزمكم إنكار نبوّة موسى أيضاً⁽²⁾. η

أفحّمهم وأسكتهم بما هم عالمون به، أي: قدّم في الاستدلال نقطة الاتفاق - وهو بشرية موسى مع مجيء الوحي إليه - على نقطة الاختلاف - وهو إنكار نبوّة محمد.

وهذا النوع من الاستدلال العقليّ يُسمّى بالزام الخصم بلوازم مسلماته. وفيه ردٌّ للمشركين من أهل الأصنام القائلين بنوّة السابقين من η، فمستندهم في السابقين موجودٌ فيه η الأنبياء منكرين نبوّة

وعلى هذا المنهج استدلّ علم الكلام لردِّ الخصوم لكن ليس بهذه السهولة في جميع المسائل بل قد يحتاج إلى مرحلتين أو أكثر للوصول إلى الإلزام.

وأقروا بنبوّته η ومن تلك الأمثلة إنكار شموليّة النبوّة: إنّ العيسويّة أتباع عيسى بن يعقوب الأصفهانيّ من اليهود اعتقدوا بنبيّنا لكن إقراراً خاصّاً فقالوا: هو مبعوثٌ إلى العرب خاصّة لا للعالم⁽³⁾.

وهذا الإقرار يضطرُّهم إلى الإقرار بصدقه في أقواله، ومن أقواله كما حكاها القرآن: [قل يا أيّها النّاس إنّني رسول الله إلّكم جميعاً] [الأعراف: 158]، وقوله: [وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس] [سبا: 28]⁽⁴⁾.

كانّ الآيات تقول: هل الرسول صادق أو لا؟ لا بدّ أن يقولوا: صادق. فإنّ أقروا بصدقه لا بدّ من تصديق أقواله، وتصديق أقواله يستلزم الاعتراف بهذه الأقوال الدالة على كونه رسولاً للعالمين.

ومن تلك الأمثلة: الردُّ على مشركي مكة حين قال قائلهم - كما حكاها القرآن -: [ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون] [المؤمنون: 34]، كأنهم قالوا: ما دام أنّه بشرٌ فهو ليس بأهل لأنّ يتنزّل عليه الوحي من الله جلّ وعلا. والبشرية مانعة من النبوّة. و(كانوا يقولون: الله أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله واحداً من البشر، بل لو أراد بعثة رسولٍ إلينا لكان ينبغي ملكاً. فجعلوا اتّباع الرسول خسراناً، ولم يجعلوا عبادة الأصنام خسراناً)⁽⁵⁾.

فردّهم القرآن لكن لم يكذبهم صراحة بل أمر المشركين أن يسألوا من قبلهم عن أنبيائهم: [فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون] [النحل: 43]، المراد بأهل الذكر في هذه الآية أهل الكتاب؛ علماء اليهود والنصارى⁽⁶⁾.

إسألوهم هل جاءتهم الرسل من البشر أو جاءتهم الرسل من الملائكة؟ فقد جاءتهم الرسل من البشر بلا شكّ، (هذه نقطة الاتفاق).

فإذا جاءتهم الرسل من البشر فلم تنكروا أن يكون رسولكم بشراً (هذه نقطة الخلاف)، فالزمهم بمسلماتهم بأن يقول:

لو كانت البشرية مانعة من ثبوت الوحي يلزمكم إنكار نبوّة السابقين!! فلم لا تنكروا السابقين وتنكروا نبيكم؟!⁽⁷⁾.

المطلب الثاني: إنكار نسخ القرآن للكتب السابقة:

- (1) إنكار اليهود للنبوّة على سبيل النفي الكلي؛ إذ النكرة (شيء) في سياق النفي تغيد العموم، وهذا يُسمّى في المنطق بالسالبة الكلية ونقيضها الموجبة الجزئية، أي: لو أثبت فردٌ - كنبوّة سيّدنا موسى - بخلاف النفي الكليّ ألغى الحكم الكليّ.
- (2) هدي القرآن إلى الحجة والبرهان: 47.
- (3) أبو البقاء: صالح بن الحسين الجعفري. (1998م). تخجيل من حرف التوراة والإنجيل. ط1. مكتبة العبيكان. الرياض. المملكة العربية السعودية: 531/2.
- (4) السمرقندي: شمس الدين (دون تأريخ الطبع وعدده). الصحائف الإلهية. تحقيق: د. أحمد عبدالرحمن الشريف: 430-431.
- (5) مفاتيح الغيب: 210/20.
- (6) المصدر نفسه: 392/9.
- (7) دراز: محمد عبدالله. (1997م). النبا العظيم. ط2. دار الطيبة. السعودية: 81 - 82.

موقوفة على جواز النسخ لكنه مُحال؛ لأنه يوجب البدء؛ ولأنَّ المنسوخ إن كان η ومن شبهة المنكرين للنبوة ما يقولون: نبوة محمد حسناً كان نسخته قبيحاً، وإن كان قبيحاً كان الله تعالى أمراً بالقبيح، وأنه غير جائز على الله تعالى. قبل الجواب لابد من تعريف النسخ:

هو - بحسب الظاهر وعلم البشر - رفع الحكم السابق بحكم لاحق. وبحسب علم الله: هو بيان لانتهاه إمكان العمل به.

فالنزاغ شكلي لا حقيقي؛ لأنَّ الذي يقول في تعريف النسخ: رفع حكم سابق بحكم لاحق فالمراد منه بحسب علم البشر، ومن قال: بيان لانتهاه إمكان العمل به، فالمراد منه بحسب علم الله⁽¹⁾.

يمكن ردُّ منكري النسخ بمسلّماتهم، فشبهة المنكرين نسخ شريعة سابقة بشرعية لاحقة، إمّا موجهة إلى الناسخ أو إلى المنسوخ أو إلى الشارع نفسه.

بالنسبة للناسخ يقولون: النسخ باطل؛ لأنه إن لم يكن الناسخ لمصلحة فعَبثٌ.

وبالنسبة للمنسوخ يقولون: النسخ باطل؛ لأنَّ الحكم المنسوخ إن كان مؤقتاً فلا نسخ أو مؤبداً فتناقضٌ.

وبالنسبة للشارع يقولون: النسخ باطل؛ لأنه إن كان لمصلحة لكن جهلها الله تعالى عند شرع المنسوخ فجَهْلٌ، أو علمها وأهمها أولاً ثم رأى رعايتها ثانياً فَبُخْلٌ من حيث الإهمال أولاً وبداء⁽²⁾ من حيث رعايتها ثانياً.

جواب الجوانب الثلاث:

أما بالنسبة للناسخ: فيكون الطعن وارداً عليكم، هو أنه إن لم تكن الأحكام التي أتى بها سيّدنا موسى - أو غيره من الأنبياء - لمصلحة فعَبثٌ.

وأما بالنسبة للحكم المنسوخ في الشرائع السابقة: فإن كان مؤقتاً فلا نسخ، أو مؤبداً فتناقضٌ.

وأما بالنسبة للشارع: فإن كانت الأحكام لمصلحة جهلها عند شرع من قبله فجَهْلٌ، أو علمها وأهمها أولاً ثم رأى رعايتها ثانياً فَبُخْلٌ وبداء⁽³⁾.

إنكار النصاري للنسخ:

وجوابهم هو الذي أوردناه رداً على اليهود؛ لأنَّ النصاري يؤمنون بالتوراة والإنجيل معاً، فما وجّه إلى التوراة من النقد موجه إلى الإنجيل أيضاً. فليس لهم حيلة إلا الاعتراف بوجود النسخ بالوجه الذي سبق.

المبحث الرابع: من الجدل العقلي في الحشر:

المذكورون للحشر طائفتان، طائفة أمنت بالله بأنه خالق السماوات والأرض لكن أنكرت الحشر. وطائفة ما أمنت بالله الخالق ولا بالحشر، كما حكى موقعهم القرآن: [وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ] الجاثية: 24. فلنبداً بالتفصيل.

المطلب الأول: طائفة أقرت بالخلق الأول وأنكرت الثاني.

مثلاً في الرد على منكري البعث مستبعدين ذلك، ردهم عن طريق برهان القياس اليقيني المحسوس، وذلك في آيات منها: قوله تعالى: [كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ] الأنبياء: 104، فبدأ بنقطة الاتفاق هي اعترافهم بالخلق الأول، إلى نقطة الاختلاف هي إنكارهم لما يشبه الخلق الأول، كأنه يقول: إن الذي قَرَّر على خلق الأول فهو قادر على إعادته ثانية بداهة.

ومنها قوله: [وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ] يس: 78، إلى قوله: [أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ] يس: 81.

لو نظرنا إلى عناصر الموضوع الذي اشتمل عليه النص القرآني نتلخص فيما يأتي:

(1) البالكي: محمد حسين الأدلاني، (2023). رسائل نادرة في علم الكلام، (ط1). دار الفتح. عمان. الأردن: 328.

(2) البدء: يعني أن تفعل شيئاً، ثم يبدو لك فسادُه فتُغيّره. ففي النسخ كأنَّ الله تعالى أعطى حكماً ثم تبين له خطؤه، فعدل عنه إلى حكم آخر. الشعراوي: 8217/13.

(3) الألفاظ الإلهية شرح الدرر الجلالية: 409/2 - 413.

العنصر الأول: فكرة إنكار البعث. صوّره القرآن بقوله: [فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ] يس: 77-78

العنصر الثاني: شبهة هذه الفكرة كما يُصوّرها زاعموها، هو الاستبعاد عن العقل وليس محالاً عقلياً.

العنصر الثالث: دور الردّ، فكيف بدأ القرآن الردّ عليهم؟ فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله: [وَنَسِيَ خَلْقَهُ] يس: 78، أي: نسي أنّا خلقناه من ترابٍ ومن نطفةٍ مُتشابهة الأجزاء، ثُمَّ جعلنا لهم من النّواصي إلى الأقدام أعضاءً مختلفة الصُّور والقوام وما اكتفينا بذلك حتّى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجزاء وهو النطق والعقل الذي بهما استحقّوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلاًّ يستبعدون خلق النّاطق العاقل من نطفةٍ قذرة لم تكن محلّ الحياة أصلاً، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محلّ كانا فيه⁽¹⁾.

ثمّ ألزمهم بمسألتهم بقوله: [أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ] يس: 81، فبدأ بنقطة الاتفاق هي اعترافهم بأنّ الله خالق السموات والأرض إلى نقطة الاختلاف هي إنكار الحشر والإعادة، كأنه يقول: إنّ الذي قدر على خلق العالم الأكبر المعترف به لديكم فهو من باب أولى قادر على إعادة العالم الأصغر - أي: الإنسان - بدهاءة.

المطلب الثاني: هم الذين أنكروا الخلق الأول والثاني:

إنّ هؤلاء الذين أنكروا الخلق الأول والثاني وقالوا بقدّم العالم شبهتهم على هذا الإنكار هي ما قالوا: وجننا الحياة رطبة حارّة والموت بارداً يابساً، وهو من طبع التراب، فكيف يجوز أن يجمع بين الحياة والتراب والعظام النخرة فيصير خلقاً سوياً، والضدان لا يجتمعان، فأنكروا البعث من هذه الجهة.

الجواب: اجتماع الضدّين مستحيل في محلّ واحد وفي جهة واحدة، ولكنّه ليس مستحيلاً اجتماعهما على سبيل المجاورة بل واقع؛ لذا احتجّ الله عليهم بأن قال: [الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا] يس: 80، فردّهم الله إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرّها ويبسها من الشجر الأخضر على بردها ورطوبتها، فجعل جواز النشأة الأولى دليلاً على جواز النشأة الآخرة، يغني من كان قادراً على جمع النار والرطوبة في الشجر مع بُعد حقيقتهما، كان قادراً على جمع الروح والتراب.

هكذا ردّ القرآن الكريم عليهم عن طريق قياس البعث غير المشهود على الأمور المرئية الكونية؛ لأنّ عالم الموت والآخرة مخفيّتان عن الأنظار فلا يمكن فهّم أمورهما بالسؤال - كما أراد المنكرون - فكلّ ما يمكن فعله لفهّم الآخرة هو قياس تلك الدار الآخرة على وجود هذه الدار الظاهرة، أي: الدنيا، فالزّامهم عن طريق المحسوسات أجلى وأظهر⁽²⁾.

ومن ناحية أخرى معتمداً المتكلمين في إثبات الحشر عقلاً راجعاً إلى قاعدتين عقليّتين:

الأول: الإمكان اللّازم للممكن حال الوجود والعدم.

الثاني: وجود واجب الوجود الكامل المطلق علماً وقدرةً وغيرهما⁽³⁾.

توضيحاً للمبتدئين أقول: الموجودات الكونية لا تحدث بنفسها من غير شيء؛ لأنّها لا تحمّل في طبيعتها السبب الكافي لوجودها، ولا تستقل بإحداث شيء؛ لأنّها لا تستطيع أن امنح غيرّها شيئاً لا تملكه هي، كما أنّ الصفر لا يمكن أن يتولّد عنه عدد إيجابي - بلا ضمّ عددٍ إليه - فلا بدّ له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره، فيلزم التسلسل المحال، فلا مفرّ من الانتهاء إلى سبب ضروريّ الوجود لا يحتاج في وجوده إلى غيره يكون هو سبب الأسباب هو الله تعالى⁽⁴⁾.

شبهات منكري البعث مبنية على شيئين:

الأول: الخلط بين المستحيل عقلاً والمستبعد عقلاً، فالمستبعد تحت دائرة الممكنات وجائز الوقوع وليس ممتنع الوقوع.

والثاني: عدم تصوّر علم الله وقدرته كما يليق به.

(1) مفاتيح الغيب= التفسير الكبير: 309/26.

(2) النعماني والندوي: شبلي، والسيد سليمان. (2006م). دائرة معارف في سيرة النبي . ط1، مطبعة الرسالة. القاهرة. مصر: 590/4 - 591.

(3) الدرر الجلائية وشرحها الألفاظ الإلهية: 429/2.

(4) دراز: محمد عبدالله. (2009م). المختار من كنوز السنة. ط2. دار القلم. القاهرة. مصر: 104 - 105. هدي القرآن إلى الحجة والبرهان: 31 - 32.

وعلى هذا الخلط يقولون: (الإعادة ليست ممكنة إمكاناً ذاتياً) فالحق بطلانها؛ لأنَّ ما عُدَّ قابلُ الوجود قبل إعدامه؛ وإلا لما وجد أوَّلاً، والقابلية صفة ذاتية لازمة لا تنفك عن الماهية وإلا لزم انقلاب الممكن ممتنعاً، وجعل الممكن محالاً محالاً عقلاً؛ لامتناع انقلاب الممكن والممتنع والواجب بعضهم إلى بعض - فإنَّ يكون قابلاً للعود⁽¹⁾. هذا دليل العقل.

أمَّا النقل: فقد احتج المتكلمون على أصل المعاد بآيات منها: [هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ] الحديد:3، وإثباته كان أوَّلاً؛ لأنَّه كان موجوداً قبل وجود الأجزاء، فكذا إنَّما يكون آخراً إذا كان موجوداً بعد آخرها، أي: يعدم العالم ويبقى هو تعالى ليتحقَّق معنى الآخر. ومنها: قوله تعالى: [كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ] الأعراف:29، بيِّن أنَّ الإعادة كالابتداء، وكان الابتداء من العدم فوجب أن تكون الإعادة أيضاً منه. وفي النهاية يكون الإنكار مبنياً على جعل المستبعد العقلي مستحيلاً عقلياً⁽²⁾.

وردُّ منكري الحشر - ولو كان متعدِّد الجهات - مبنياً على هاتين القاعدتين من:

بيان الفرق بين المستبعد عقلاً والمستحيل عقلاً من جهة.

وإثبات الإمكان اللازم للممكن. وإثبات العلم والقدرة المطلقتين لواجب الوجود من جهة أخرى.

الخاتمة:

بعد رحلة شاقَّة وماتعة معاً في البحث توصلتُ إلى ما يأتي:

1- وصلنا إلى أنَّ علم الكلام الذي كان غايته الدفاع عن الحقائق الإيمانية بطريق عقلائي مقنع كانت جذوره موجودة في القرآن وعلماً مرغوباً كما ظهر من مجادلة سيدنا إبراهيم.

2- لم يستغ علم الكلام العارَ المتمثِّل في مجابهة القلم بالسيف، كما يقال: الإسلام إنَّما انتشر بسُلطان القهر والسيف، بل واجه فئات الناس كُلَّ حسب عقليته.

3- الاطلاع على علم الكلام والتعرُّف على أدلته يُعطي الإنسان فهماً إيمانياً ويصبح مُلمَّاً بالأدلة القويَّة عن إثبات الصانع وتنزيهه عما لا يليق به، والنبوة، والحشر.

4- واجه علم الكلام الأفكار المنحرفة بمسالك:

المسلك الأول: تنبيه الإحساس الفطري وإيقاظه في كيان الإنسان بلا استعمال الاصطلاحات العلمية في الاستدلال. وهذا لعوام الناس، لكن يمكن أن يؤخَّذ منه المسلكان الآتيان.

المسلك الثاني: استعمال ميزان العقل والمنطق في صورة سهلة، وهذا ما يُسمَّى بدليل العناية، أو دليل الحكمة والتدبير، وهو دليل تصطبَّغ به المخلوقات كلها. وهذا لطبقة المتقِّين.

المسلك الثالث: استعمال ميزان العقل والمنطق في صورة دقيقة وهو مسلك الفلسفة أو مسلك العقلي الغامض والدقيق، وهذا المسلك للخواص. كما سيأتي في القسم الثاني.

انتهينا بعصر النزول وسيأتي ما بعد عصر النزول بادئاً بالأمثلة التطبيقية في مرحلة الفرق ثمَّ عصر الترجمة ثمَّ عصر الحاضر.

References:

- 1 - Ibn Khaldun: Abdul Rahman bin Muhammad Al-Hadrami. (1984 AD). Introduction by Ibn Khaldun. 5th edition. Dar Al-Qalam. Lebanon. Beirut.
- 2 - Ibn Khumayr: Abu Al-Hasan Ali bin Ahmed Al-Sabti. (1999 AD). The prophets were above what was attributed to them by the scum of the fools. 2nd ed. House of Contemporary Thought. Beirut. Lebanon.

(1) الصحائف الإلهية: 437 و 443.

(2) المصدر نفسه: 442- 443.

- 3 - Abu Al-Baqa: Saleh bin Al-Hussein Al-Jaafari. (1998AD). Ashamed of the letter of the Torah and the Gospel. 1st edition. Obeikan Library. Riyadh. Kingdom of Saudi Arabia.
- 4 - Al-Isfarayni: Taher bin Muhammad Al-Isfarayini. (1983AD). Gaining insight into religion and distinguishing the saved faction from the perishable faction. 1st edition. World of Books, Beirut. Lebanon.
- 5 - Al-Seville: Muhammad bin Abdullah bin Al-Arabi. (1990 AD). The law of interpretation. 2nd ed. House of the Islamic West. Tunisia, 2nd edition, 1990 AD.
- 6 - Al-Ash'ari: Abu Al-Hasan Ali bin Ismail bin Ishaq.(1980). Articles of Islamists and the differences of worshipers. 3rd edition. Franz Steis House, Wiesbaden. (Germany).
- 7 - Al-Iji: Adud al-Din Abd al-Rahman bin Ahmed. (1997 AD). Attitudes. 1st edition. House of generation. Beirut. Lebanon.
- 8 - Al-Balki: Muhammad Baqir bin Hussein Al-Ardalani. (1993 AD). Divine Kindness Explanation of Majestic Pearls. 1st edition. Meta Basin. Istanbul.
- 9 - Al-Balki: Muhammad Hussein Al-Ardlani. (2023). Rare treatises on theology (1st edition). Dar Al-Fataj. Oman. Jordan.
- 10 - Al-Taftazani: Saad al-Din Masoud bin Omar. (1989 AD). The objectives and its explanation. 1st edition. The world of books. Beirut.
- 11 - Al-Thanawi: Muhammad bin Ali, son of Judge Muhammad Hamid. (1996 AD). Kashaf Encyclopedia of Arts and Sciences Terminology. 1st edition. Lebanon Library Publishers. Beirut. Lebanon.
- 12 - Al-Jalalayn: Jalal al-Din Muhammad bin Ahmad al-Mahli. And Jalaluddin Abdul Rahman bin Abi Bakr Al-Suyuti. (Without publishing history). Interpretation of Al-Jalalayn. 1st edition. The conversation took place. Cairo. Egypt.
- 13 - Al-Khayyat: Abu Al-Hussein Abdul Rahim bin Muhammad Al-Mu'tazili. (1993 AD). Victory and response to the atheist Ibn al-Rawandi. 2nd ed. Arab Book House Library. Cairo . Beirut. Lebanon.
- 14 - Al-Khayali: Ahmed bin Musa Shams al-Din, Ramadan bin Muhammad al-Hanafi al-Afandi, and Muslih al-Din bin Muhammad al-Qastalani (2012 AD). The Sunni group explains the Nasfi beliefs. 1st edition. Dar Nour Al-Sabah. Istanbul. Türkiye.
- 15 - Daraz: Muhammad Abdullah. (2009AD). Selected from the treasures of the year. 2nd ed. Dar Al-Qalam. Cairo. Egypt.
- 16 - Daraz: Muhammad Abdullah. (1997AD). The great news. 2nd ed. Dar Al-Taybeh. Sudanese.
- 17 - Al-Razi: Abu Abdullah Muhammad bin Omar bin Al-Hassan. (1984), The Infallibility of the Prophets. 1st edition. Martyr Press. Get up. Iran.
- 18 - Al-Razi: Abu Abdullah Muhammad bin Omar bin Al-Hassan. (1998), Keys to the Unseen = The Great Interpretation. 3rd edition. House of Arab Heritage Revival. Beirut. Lebanon.
- 19 - Siraj Al-Din: Abdullah Muhammad Najib. (1999 AD). Belief in the afterlife. 1st edition. Al-Sabah Press. Aleppo. Syria.
- 20 - Siraj Al-Din: Abdullah Muhammad Najib. (1991 AD). The Qur'an's guidance to evidence and proof, 1st edition. Al-Sham Printing Establishment. Aleppo. Syria.

- 21 - Saif Al-Din: Ahmed Saeed. (2008 AD). The doctrine in the Holy Qur'an between abandonment and sweetening. 1st edition. Scientific Books House. Beirut . Lebanon.
- 22 - Al-Shaarani: Abdel-Wahhab (2008 AD). Scouting rules explaining the divine attributes. 1st edition. Umm Al-Qura Library.
- 23 - Al-Shahrastani: Abu Al-Fath Muhammad bin Abdul Karim. (1992 AD). Boredom and bees. 2nd ed. Scientific Books House. Beirut. Lebanon.
- 24 - Al-Ghazali: Muhammad bin Muhammad bin Muhammad. (2017). Bridging the common people from the science of theology. 1st edition. Al-Sarraj Library. Istanbul. Türkiye.
- 25 - Al-Numani and Al-Nadawi: Shibli and Al-Sayyid Suleiman. (2006AD). Encyclopedia on the biography of the Prophet. 1st edition, Al-Resala Press. Cairo. Egypt.